البحث رقم (٧)

الوجود اليهودى فى سياق تاريخ الفنون من خلال جداريات كنيسة "دورا أوروبوس"

The Jewish Presence in the Context of the Art History through the Murals of "Dura-Europos" Synagogue

أ.م. د / محمد عبد السلام عبد الصادق محمد هلال
الأستاذ المساعد بقسم التصوير (تخصص تاريخ الفن)
كلية الفنون كلية الفنون الجميلة – جامعة الإسكندرية

ملخص البحث :

لازالت المنطقة العربية تمثل محورا أساسيا للصراعات التاريخية بين عالمى الشرق والغرب و جذورها الممتدة لأكثر من سبعة قرون، وتقع منطقة الشام فى الوقت الراهن من هذه الصراعات فى موضع بؤرة الأحداث، ولازالت نظريات السباق الحضارى تلقى تبعاتها إلى يومنا هذا مؤسسة على الاكتشافات الأثرية والنظريات التاريخية المتواترة.

فى البحث التالى رصد لواحد من أهم الاكتشافات الأثرية فى بلاد الشام خلال بواكير القرن العشرين ، و هو الاكتشاف الأثرى لمدينة "دورا أوروبوس" والأعمال الفنية الجدارية التى وجدت فى واحدة من أقدم الكنائس فى العالم، حيث ترجع أهمية هذا الكشف لكم النظريات التى ارتبطت به ، و اعتباره نقطة فاصلة فى تحديد العلاقة بين الفنون المسيحية المبكرة و الدور الذى لعبه الفن اليهودى فى تأسيس شخصية الفنون المسيحية و ما تلاها من فنون الحضارات المتعاقبة.

كما تكشف هذه الدراسة عن قيمة آثار "دورا أوروبوس" من خلال تكريسها للمزاعم اليهودية حول القمع والاضطهاد الذى تعرض له اليهود عبر التاريخ، وهو الأمر الذى ينطوى على جزء من الحقائق، إلا أنه ظل يُفسر فى إطار أحقية الوجود الصهيونى لاغتصاب الأرض وممارسة العنف ضد بقية الأعراق و الأديان و بشكل منهجى منظم.

Research Summary:
The Arab region is still a central hub for historical conflicts between East and West and its roots that are extending for more than seven centuries. The Levant region at the present time lies in the focus of events, and theories of the civilized race are still receiving their consequences to this day, based on archaeological discoveries and frequent historical theories.

In this research, one of the most important archaeological discoveries in the Levant was discovered during the early part of the twentieth century. The archaeological discovery of the city of "Dura Europos" and the mural art works were found in one of the oldest churches in the world. The importance of this revelation is due to you the theories that have been associated with it and considering it a watershed point in determining the relationship between early Christian arts and the role that Jewish art played in establishing the personality of Christian arts and the following civilizations.

This study reveals the value of the effects of the "European role" by devoting to the Jewish allegations about the repression and persecution to which Jews have been subjected throughout history. This history transmits on a part of the facts, but it was still interpreted in the context of the right of the Zionist presence. Violence against other races, in an organized and systematic manner.

أهمية البحث :

تكمن أهمية البحث فى فى محاولته الكشف عن القيمة الحقيقة لواحدة من الأعمال الأبداعية فى منطقة بلاد الشام، وإيجاد نقطة التقاء بين تأثيرات الديانات المتعاقبة و علاقة ذلك كله بالأحداث و المتغيرات الساسية المعاصرة.

تساؤلات البحث :

يسعى الباحث خلال الصفحات التالية للإجابة عن عدة تساؤلات يمكن تحديدها فيما يلى :

- ماهى القيمة الحقيقية للعمل الفنى فى مدينة "دورا أوروبوس"؟
- كيف مثلت اليهودية نقطة انطلاق لظهور البدايات الأولى للفن المسيحى؟
- كيف يمكن تكريس العمل الفنى فى سبيل فرض بعض الأيديولوجيات السياسية؟
- ماهو دور البعثات الأثرية الحديثة فى تكوين خريطة المنطقة العربية؟

البحث :

مفارقة أشار إليها الكاتب والمؤرخ الأمريكى "كارل هـ. كريلينج" "Carl H. Kraeling" (١٨٩٧- ١٩٦٦م) بقوله : [أحيانا نقابل بمصطلح مثل مؤرخ الفن الفرنسى" للإشارة إلى رجل / امرأة يقوم بدراسة تاريخ الفنون فى فرنسا ، و بالمثل ينسحب المعنى نفسه على "مؤرخ الفن الهولندى" و "مؤرخ الفن الأمريكى" ، إلا أن ثمة استثناءا يقابلنا حين يتعلق المصطلح بتعريف "مؤرخ الفن اليهودي" ، فالمصطلح هنا لا يذهب إلى تخصصه ، ولكنه- عوضا عن ذلك- يذهب إلى انتسابه إلى اليهودية من خلال الأبوين أو الزواج أو غير ذلك.. بمعنى آخر.. فإن مؤرخ الفن اليهودي هو يهودي يدرس تاريخ الفن.] (H. Kraeling 1956: 402)

فى أوائل القرن العشرين شهد مجال تاريخ الفنون حصول الألمانى اليهودى "أدولف جولدشميت" "Adolph Goldschmidt" (١٨٦٣- ١٩٤٤م) على شهادة الأستاذية فى تاريخ الفنون- لأول مرة- غير مقترنة بشهادة معمودية، وذلك بعد أن كان وجودها شرطا للحصول على درجة الدكتوراه، قدم "جولدشميت" أول تحليل مفصل لفنون القرون الوسطى فى شمال شرق ألمانيا، كما ساهم في كتابة عدد من المقالات الهامة حول اللوحة الشمالية الألمانية، والنحت الساكسوني، والمخطوطات المصغرة في العصور الوسطى كان من بين اليهود الذين فروا من الحكم النازى، وتوفى فى "سويسرا" عن عمر يناهز الثمانين عاما، وكانت شهادته العلمية بداية لسلسلة من الأساتذة اليهود المتخصصين فى تاريخ الفنون، مثل "إروين

بانوفسكى" "Erwin Panofsky" (١٨٩٢– ١٩٦٨م) و "آبى واربورج" "Aby Warburg " (١٨٦٦– ١٩٢٩م)، وغيرهما. (See: Holly, Michael Ann 1985)

إشارة لما سبق فى مستهل البحث.. لم يرتبط وجود المؤرخين من اليهود بالبحث فى تاريخ الفن اليهودى بشكل أساسى ، فلم يكتب "جولدشميت" شيئا عن الفن اليهودى، بينما كان لـ"بانوفسكى" و "ماير شابيرو" "Meyer Schapiro" (١٩٠٤– ١٩٩٦م) إسهامات قليلة فى ذلك الصدد فوضع "شابيرو" بحثا عن الفسيفساء القديمة داخل "إسرائيل ، كما كانت تجارب الباحثات اليهوديات مثل "راحيل ويتشنتزر بيرنشتاين" (١٨٨٥– ١٩٨٩م) " Rahel Wischnitzer–Bernstein" و "هيلين ريزيناو" "Helen Rosenau " (١٩٠٠– ١٩٨٤م) هامشية للغاية. (Kleinbauer 1982: 69)

يرى البعض أن السبب وراء ذلك ترجع جذوره للوصية الثانية من شرائع النبى "موسى" التى تحظر التصوير والنقش وكل ما يتعلق بتقليد الطبيعة، وهو ما جعل الفن اليهودى يحتل فى تاريخ الفنون حيزا محدودا، ليصبح بذلك هو الفن الوحيد تقريبا الذى لم تهتم المصادر بإفراد فصل مخصص له، بل لم يكن مدرجا فى الدراسات المبكرة للفنون العالمية ، المثير أن عدم وجود الفن اليهودى مع مرور الوقت أصبح يثير كما كبيرا من المناقشات والأطروحات الحيوية أكثر من الفن اليهودى نفسه.

تذكر دراسة الكاتبة "مارجريت أولين Margaret Olin" عن الفن اليهودى ومؤرخيه: [لاعتبارت أساسية تتعلق بوصايا الكتاب المقدس تم منع اليهود من خلق فن يميزهم، فاكتفوا بما جنوه من أذواق الفنون الشرقية ، و اقتراضهم الأشكال والوحدات وأصحاب الحرف الفنية من أماكن أخرى ، و بالرغم من أن التأريخ لوجود الفنانين اليهود يبدأ مع أولئك الذين عاصروا النبى سليمان و بناء هيكله ، إلا أن الفنانين اليهود فى العصر الحديث استعاروا زخارف الفرنسيين أكثر من استعارتهم زخارف الفينيقيين.] (Olin 2000: 7)

على جانب آخر تُرجع بعض الدراسات غياب الفن اليهودى لأسباب أخرى خلاف الجوانب الشرائعية ، حيث تعلق الكاتبة "كاترين كوجمان أبل" "Catherin Kogman Appel" على ذلك فى دراسة بقولها :[فى منتصف القرن السادس الميلادى كُلف الفنانون اليهود بأعمال فنيه تقوم على تصوير العنصر البشرى ، فجاءت أعمال الفسيفساء بمعبد "بيت ألفا" (شكل ١)

قرب "بيت شان"[٧٩] الذى تمت زخرفته فى عهد الإمبراطور "جوستن الأول" ، و كذلك كنيسة "نعران" فى "أريحا" و التى تعود زخارفها إلى عام ٥٥٠ ميلادية تقريبا (شكل ٢) ، وكل من يثير مسألة حظر الفن اليهودى يرتكز بشكل أساسى على الوصية الثانية ، لكن المسألة تعود إلى ديناميكيات متغيرة من التآكل مع البيئة غير اليهودية ، فمن وجهة نظر الحاخامات فإن الحظر التوراتى لم يطبق إلا على تمثيل الأجسام ثلاثية الأبعاد باعتبارها أقرب للأصنام ، أما الصور ذات الطابع ثنائى الأبعاد التى تنتج لمجرد التزيين فهى لا تشكل ، وفقا لمعظم السلطات التلمودية ، مخالفة.] (Kogman– Appel 2009: 77)

(شكل ١) فسيفساء أرضية معبد "بيت ألفا" والتى ترجع للفترة بين عامى ٥١٨ و ٥٢٧ ميلادية

[٧٩]- إحدى المستعمرات التى تقع إلى شمال الضفة الغربية حاليا داخل حدود الأراضى الفلسطينية المحتلة.

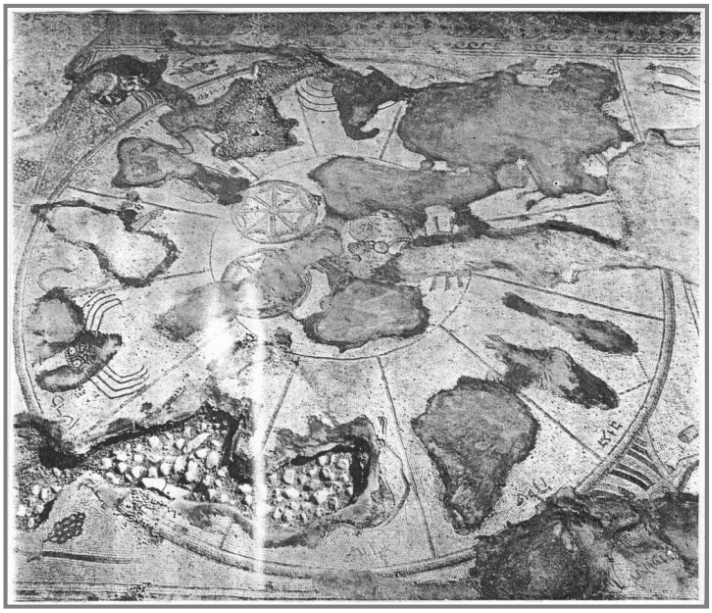

(شكل ٢) فسيفساء أرضية معبد "نعران" والتى ترجع لحوالى عام ٥٥٠ ميلادية

ما أشارت له الدراسة السابقة من "التآكل" يرتبط- بالأحرى- بظروف متشابكة، ففي مرحلة ما خلال النصف الثاني من القرن السادس الميلادى توقف اليهود عن ممارسة أو استخدام الفن التشكيلي، في معظم البيئات المسيحية يبدو أن اليهود لم ينتجوا الكثير من الثقافة البصرية على الإطلاق، وخلال فترة القرون الوسطى عاش اليهود في البيئات المسيحية في بيزنطة وجنوب إيطاليا، وبدءا من القرن التاسع الميلادى استقروا في الأراضي الألمانية ، وبعد ذلك في شمال "فرنسا" و"إنجلترا" ، ثم كان القرن الثاني عشر الميلادى مهما في كونه فترة ازدهار ثقافي لكل من اليهود والمسيحيين على السواء نتيجة لمجموعة متنوعة من التفاعلات والتأثيرات المتبادلة.

خلال العصور الوسطى لعب لاهوت القديس "أوغسطينوس" " Aurelius Augustinus Hipponensis"(٣٥٤- ٤٣٠م) دورا فى تحديد العلاقات اليهودية المسيحية، وكانت أفكاره شاهدا على مشروع حقيقة الإيمان المسيحى، وهو ما أدى مع الوقت إلى تدهور العلاقات بين اليهود و المسيحيين بشكل مطّرد، وفى مجموعة متنوعة من الظروف، ثم جاء من بعده الأسبانى "أجوبارد" " Agobard" (٧٧٩- ٨٤٠م) أسقف مدينة " ليون" خلال عصر النهضة الكارولنجية ليدعو إلى "المجتمع المسيحى النقى"، وفى سبيل ذلك راح يشكك فى المكان

الشرعى لليهود، وهو ما فتح الباب أمام مواقف مسيحية تجاه اليهود تنطوى على شىء من العنف والعدوانية ، الأمر الذى بلغ ذروته خلال القرن الثالث عشر الميلادى. (See: Chester Jordan 1989)

لكل ذلك.. فليس مستغربا أنه حتى عشرينيات القرن لم يكن ثمة مؤرخون كتبوا عن الفن اليهودى بشكل ملحوظ، حيث شهد ذلك العام اكتشاف حافز هام لمؤرخى الفن ، أدى إلى انطلاق سلسلة من الأبحاث النشطة حول الآثار الفنية اليهودية ، منها أبحاث المؤرخ إنجليزى المولد "سيسيل روث" "Cecil Roth" (١٨٩٩- ١٩٧٠م) عن الفن اليهودى ، كما وضع "رودولف هالو" "Rudolf Hallo" (١٨٩٦- ١٩٣٣م) موسوعته عن التعريفات الأدبية الخاصة بالفنون اليهودية ، كما أتم الألمانى "ريتشارد كروثيمير" "Richard Krautheimer" (١٨٩٧- ١٩٩٤م) بحثه عن المعابد اليهودية فى العصور الوسطى ، كما نشر المؤرخ الروسى المولد "إرنست كوهن- فيينر" "Ernst Cohn-Wiener" (١٨٨٢- ١٩٤١م) أول مجموعة من المحاضرات في كتاب التاريخ العام للفن اليهودي. (See: Kleinbauer 1982: 71) ، لقد بدا كما لو أن مفهوم "مؤرخ الفن اليهودى" سيعني أكثر من مؤرخ فني ولد من الآباء اليهود.

فما هو الحافز الذى فتح الآفاق أمام المؤرخين باتجاه الفن اليهودى؟

واقع الأمر أنها لم تكن مصادفة ، فقد شهدت عشرينيات القرن الماضى حملات منظمة من التنقيب و الاستيلاء على آثار الحضارات القديمة فى بلاد "سوريا" ، تم ذلك فى إطار خطة ممنهجة من قبل قوات التحالف الاستعمارية فى سبيل السيطرة و تشكيل وجه الحضارة الإنسانية على النحو الذى يرضى أهداف الاستعمار.

كانت بعثات التنقيب قد بدأت في بلاد الشام منذ القرن الثامن عشر الميلادى، وكانت تحت الحكم العثماني, وتنافست عليها كل من فرنسا و بريطانيا، في ذلك الحين أخذت بعض آثار الشرق تصل إلى أوروبا, ومعها شيئاً فشيئاً بدأ نشر أبحاث عن الأطلال القديمة ، ومنها مساهمة الفرنسى "جان جاك بارتلمي" " Jean-Jaques Barthélemy" (١٧١٦- ١٧٩٥م) عام ١٧٥٤ م بفك رموز الكتابة التدمرية, والألماني "جروتفند" " Friedrich August Grotefend" (١٧٧٥- ١٨٥٣م) عام ١٨٠٢ م بتفسير المسمارية الفارسية، وزاد في تلك الفترة الاهتمام بطريق الهند والمواصلات بين البحر المتوسط والخليج العربي, وتوطد التمثيل

الدبلوماسي الغربي في الشرق ، فنشأ في قلب الإرساليات الفرنسية و البريطانية نوع من الدراسات الشرقية عُرف باسم "آسيريولوجي". (See: Pop 1999: 103)

من بين أهم التنقيبات الأثرية ما جرى بين عامى ١٩٢٢ و ١٩٢٤م فى مدينة تقع على الضفة الشرقية لنهر "الفرات" ، و تعرف بمدينة "دورا أوروبوس" قرب "دير الزور" فى "سوريا" ، و هى مدينة بابلية ، و لكن مع سقوط بابل عام ٥٣٨ ق. م بيد الفرس بقيادة "قورش" تشكلت إمبراطورية فارسية على أنقاض إمبراطورية "بابل" شاملة الهلال الخصيب ، وبالتدريج استطاعت أن تضم العالم المتمدن، وقد أعاد السلوقيون بناء "دورا أوروبوس" عام ٣٠٠ ق. م وسموها "أوروبوس" نسبة إلى مدينة في "مقدونيا "تحمل نفس الاسم ، و من ثم ضمها الرومان إلى دولتهم عام ١٦٥م وقاموا بتحصينها ، قبل أن يحتلها الساسانيون ويدمروها عام ٢٥٦م ، ورغم أن تاريخ هذه المدينة تراوح بالانتماء بين البابلية والسلوقية والرومانية إلا أن ثقافة أهلها بقيت متأثرة بالحضارة السريانية والتدمرية المحيطة بها. (شكل ٣).

(شكل ٣) أطلال مدينة "دورا أوروبوس"

حوت "دورا أوروبوس" واحدة من أهم الكنائس ، حيث ترجع أهميتها لاحتوائها على عدد من الجداريات التى تحمل موضوعات متعلقة بالعقيدة اليهودية (و تبلغ ثمانية و عشرين عملا حائطيا) ، الأمر الذى يعد ظاهرة مبكرة فى علاقة الديانتين اليهودية والمسيحية ، علاوة على اعتبار المؤرخين هذه النماذج إثباتا على دور الفن اليهودى فى الفترات المبكرة تاريخيا (شكل

٤) و (شكل ٥) ، وقد علق "إ. هـ. جومبريتش" "E. H. Gombrich" (١٩٠٩– ٢٠٠١م) عن ذلك الاكتشاف بقوله : [ربما لم يجمع المؤرخون على هذا التقييم ، إلا أن الأهمية التاريخية للوحات تكمن فى كونها أول نصب يهودية دينية موجودة تمتعت بمكان آمن في استطلاعات تاريخ الفن ، لقد شوه كتّاب الدراسات الاستقصائية السابقة اليهودية و أوراق اعتمادهم الفنية ، إلا أن القضايا التي أثارتها لوحات "دورا أوروبوس" مهمة لكونها تمثل أعمالا معتبرة بدأت تؤثر على الفن فى الوقت الذى كانت فيه الديانة المسيحية تنتشر من الشرق ، وبدت تلك الأعمال كأنها فى خدمة المسيحية] (Gombrich 1972: 90)

لم يجمع المؤرخون فى البداية على قيمة هذه الأعمال ، بل و لا على نسبها تاريخيا إلى الفن اليهودى ، حتى أن المؤرخ الروسى الأصل "هـ. و. جانسون" "H. W. Janson" وضع بعض تلك الأعمال ضمن فصل "الفن الرومانى" ، والبعض الأخر تحت عنوان "الفن المسيحى المبكر" ، الأمر الذى أدى إلى الاعتراف ضمنيا بما يسمى "المعابد المسيحية الأولى". (Janson 1991: 252, 253).

(شكل ٤) صورة للحائط الغربى للكنيسة الأثرية بمدينة "دورا أوروبوس" و فيه تظهر أعمال الفريسك الحائطى

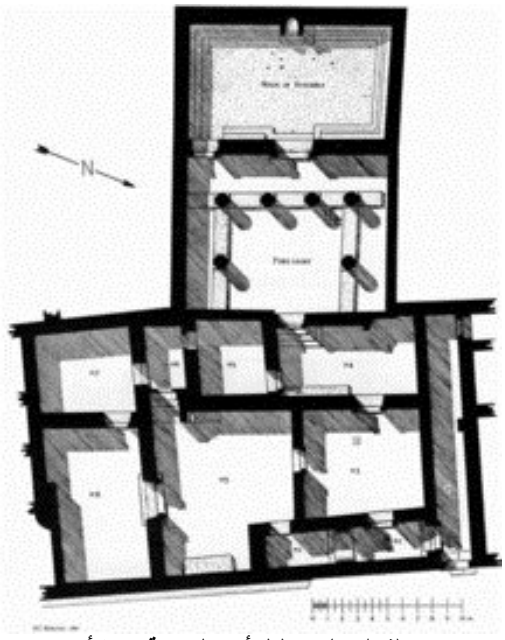

(شكل ٥) مخطط رأسى لكنيسة "دورا أوروبوس"

كما علق فى نفس السياق المؤرخ "هربرت هيوارث" "Herbert Howarth " (١٩٠٠-١٩٧١م) بقوله : [مع كل الاحترام الواجب ، ورهنا بالتصحيح ، أقترح أن الجداريات في "دورا" يجب أن تصنف مع الفنون البصرية الأخرى التي يقوم بها اليهود في أشكال غريبة عليهم ، إن الفنانين اليهود الذين أعدوا هذه الأعمال أصبحوا- حقا- سادة حرفة ، و لكن في تنفيذ تلك الحرفة تخلوا عن يهوديتهم] (Howarth 1950: 146)

اتفق معظم الكتاب والمؤرخين النصب على القبول الضمني لفكرة حظر الصور في اليهودية ، يتضح ذلك من خلال تعليقاتهم المتعددة على التناقض بين الدين الذي يحظر الصور والزخارف التى تنتسب لفنان يهودى، بينما كان "جومبريتش" هو الوحيد الذي قدم شرحا موضوعيا لوجود اللوحات في عبادة "غامضة ومخيفة" على حد تعبيره، وذلك بعيدا عن نبرة التغنى بعبقرية الفنان أو الحرفى الذى أنتجها ، تلك النبرة التى سيطرت على كتابات عالم الآثار الأمريكى "كلارك هوبكنز" "Clark Hopkins" (١٨٩٥- ١٨٧٦م) (Hopkins, 1933: 188)، بل ذهب إلى إيجاد مبررات لقصور الفنان الذي صمم "تلك اللوحات "المتواضعة"، إذ يرى أن الفنان "كان بلا شك ماهرا جدا، ولكن ربما لم يكن مهتما كثيرا برسم شخصيات نابضة بالحياة ، فكلما كانت الصور أكثر حيوية، كلما صار الفنان اليهودى مخطئا فى حق الوصايا التى تحظر الصور" (Gombrich 1972: 91)، أو بمعنى آخر لقد

كان الفنان الذى نفذ الأعمال قاصرا فى أدائه عن عمد ، حتى لا يحتسب عمله انتهاكا للوصية الثانية.

كذلك جاء التعليق الرئيسى على الكنيسة من "كورت ويتزمان" "Kurt Weitzmann" (١٩٠٤- ١٩٩٣م) الباحث فى تاريخ الفنون البيزنطية و "هربرت ليون كيسلر" " Herbert Leon Kessler" (١٩٤١-) أستاذ تاريخ فنون العصور الوسطى ليحدد أهميتها باعتبارها "سلفا للآثار المسيحية" ، واحتوائها على كم جدير بالاعتبار من المخطوطات الهيلينستية" (See: Weitzmann and Herbert 1990) ، بينما لا يأتى فى سياق حديثهما شىء يذكر عن دور الفنان اليهودى ، حتى أن عنوان كتابهما ذاته يشير للتركيز على الجانب المسيحى للوحات " Synagogue and Christian[٨٠] 'The Frescoes of the Dura Art" أو "فريسك كنيسة دورا و الفن المسيحى".

ذهب رأى "أنابيل وارتون" "Annabelle J. Wharton" (١٩٤٤-) أستاذة تاريخ الفنون إلى القول بالتناقض الواضح فى الخطاب الدائر حول الجداريات فى "دورا أوروبوس"، وكيف أن بعض الآراء تحاول التقليل من قيمة هذه الأعمال، بل وقيمة المدينة نفسها، وحتى الدراسات المتخصصة- على حد قول "وارتون"- تحاول نفى دور الفنان اليهودى فى تلك اللوحة، وتكتفى بأهميتها من حيث علاقتها بالفن المسيحى المبكر. (Wharton 1994: 12).

رغم كل ذلك فقد كان اكتشاف الجداريات فى مدينة "دورا أوروبوس" نقطة تحول حقيقية حول فهم الجذور العميقة لما يمكن تسميته "فنا يهوديا"، وتحييد النظرة التأريخية لهذا الفن، وعلى جانب آخر فقد استدعت تلك النماذج الإبداعية المبكرة كما من الأبحاث والأطروحات الجدلية حول علاقة الفنان اليهودى بالمسيحية، وقيمة الدور الذى لعبته تلك الأعمال فى إيجاد مفهوم جديد لمصطلح "مؤرخ الفن اليهودى".

فى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى ، و قبل اكتشاف كنيسة "دورا أوروبوس" ، كانت أوروبا تشهد معركة جدلية كبيرة محورها التمايز العرقى ، و دخل أنصار تيار "الإنسانية" "Humanists" فى مواجهة مع أنصار الكلاسيكية ، حيث خاض علم "الفولكولوجيا" وعلم الآثار الكلاسيكية فى ظل تأثير الرومانتيكية الألمانية معركة عرقية موسعة شملت أوروبا

[٨٠] - المصطلح المستخدم هنا لا يعنى الكنيسة بالمعنى الحرفى "Church" أو "Abbey" ، بل تصبح الترجمة الدقيقة له هو "الكنيّس اليهودى" ، نظرا لاختلاف المؤرخين حول طبيعة المكان و هويته الدينية استنادا إلى الأعمال الجدارية التى اختلف المؤرخون على تحديد انتمائها من حيث كونها مسيحية أو يهودية.

بأكملها فى مواجهة التيار الإنسانى الذى يركز على قيمة وكفاءة الإنسان ، سواءا كان فرداً أو جماعة، ويفضل عموماً التفكير والاستدلال (العقلانية و التجريبية) على المذاهب أو العقائد الثابتة أو المنزّلة (الإيمانية)، وهو ما رآه بعض المفكرين– لا سيما فى ألمانيا– خطرا يهدد العقيدة و الثقافة المتأصلة.

من ذلك ظهرت آراء المؤرخ "جوليوس لانجبن" "Julius Langbehn" (١٨٥١–١٩٠٧م) داعيا لوجود "ثقافة ألمانية نقية" ، و كان اليهود– حسب وجهة نظره– هم السبب فى "فساد الثقافة و الأخلاق الألمانية ، و يجب ألا يكون لهم وجود فى ألمانيا" ، بل ذهب إلى مهاجمة لوحات "رمبرانت" "Rembrandt" (١٦٠٦– ١٦٦٩م) باعتبارها تمجد الوجود اليهودى ، كما كانت الأفكار التى نادى بها عالم الآثار الألمانى "جوستاف كوسينا" " Gustaf Kossinna" (١٨٥٨– ١٩٣١م) تدعو صراحة لـ"دراسة ما قبل التاريخ الألمانى فى مواجهة أولئك الذين تعتم عقولهم علوم اللغات اليونانية و اللاتينية" على حد قوله ، و كان منهجه يقوم على "استخدام علم الآثار لتعزيز المطالبات بأمة ألمانية موسعة". (See : Soussloff 1999: 19 -41)

فى عام ١٨٨٠م شهد متحف "برلين" دخول بقايا مذبح عثر عليه فى مدينة "برجامون" ، كما تم نقل قطع نحتية هيلينستية مأخوذة من نافورة قصر "جريمانى دى سانتا ماريا فورموزا" "Grimani di Santa Maria Formosa" بـ"فينيسيا" إلى متحف "كونثيستوريشس" بـ"فيينا" و كان هذا بمثابة بداية لإعلان مواجهة بين فكرة تأصيل الهوية و الشخصية القومية التى برزت بقوة فى ألمانيا و بين أنصار الاتجاه الإنسانى.

تعليقا على هذه الأوضاع المحتدمة فى أوروبا نهاية القرن التاسع عشر الميلادى كتبت "مارجريت أولين" :[كانت مهمة التيار الإنسانى نشر الفن الهيلنستي على الخطوط الأمامية للمعركة بين القومية الألمانية و الإمبراطورية متعددة الجنسيات التي كانت "فيينا" مركزا لها ، أدرك بعض العلماء النمساويين أن الإمبراطورية كانت مهددة من قبل مفهوم "القومية" لمجموعات مثل "السلاف" و"الألمان" الذين يقفون على الحدود المشتركة بينهم وبين "النمسا" و"المجر"، فضلا عن قومية المجموعات الفرعية الصغيرة مثل البوهيميين، لقد كان علماء "النمسا" ينكرون تجاوز مساهمات الأعراق المتعددة فى كيان أكبر هو الدولة.] (Olin 2000: 12)

كان مؤرخو الفن– حتى ذلك الوقت– نادرا ما يتحدثون علنا عن "معاداة السامية" ، واكتفوا بالإشارة لها فى كتابات متفرقة و وجهات نظر فردية ، لكن بمرور الوقت علت نبرة الدفاع عن حقوق الأقليات العرقية، وشاعت الكتابات فى إطار مجتمع مؤرخى الفنون التى تدين معاداة الألمان للأعراق الأخرى، لا سيما اليهودية منها ، من ذلك ما أصدره العالم الشاب "وقتذاك" "فريدريش بورثيم" "Friedrich Portheim" (١٨٥٨– ١٩٤٢م) مهاجما اعتداء الألمان على تاريخ الفن الهيلينستى و ذلك فى كتابه المنشور عام ١٨٨٦م، "رافضا السمات الألمانية البدائية ، و الزخارف السلتية المعبرة عن الألمان البدائيين ، مؤثرا عليها الجذور الهيلينة للثقافة و الفنون فى أوروبا" (Olin 2000: 12)

بالمثل هاجم تلامذة الفيلسوف و المؤرخ النمساوى "مورتيز ثاوسينج" " Mortiz Thausing" (١٨٣٨– ١٨٨٤م) فكرة "القومية الألمانية" ، و ذهبوا إلى تبجيل الفن اليوناني وتحديد الهوية من خلال أعمال "رمبرانت" و "ألبريخت دورر" "Albrecht Durer" (١٤٧١– ١٥٢٨م) ، و قد ساهمت كتابات "ألويس ريجل" "Alois Riegl" (١٨٥٨– ١٩٠٥م) في إبراز "إسهامات الفن الشرقي في الفن اليوناني خلال العصور القديمة ، و في الفن الإيطالي وحتى بلوغ الفن الشمالي في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين ، معتبرا أن "القومية تكون قاصرة جدا إذا فكرت فى دافع لحفظ تاريخها". (Riegl 1992: 196)

من بين مظاهر احتدام الجدل ذاته تلك الرسائل البحثية المتبادلة بين اثنين من كبار المؤرخين فى عصرهما البولندى المولد "جوزيف سترزيجوفسكى" "Josef Strzygowski" (١٨٦٢– ١٩٤١م) و الفرنسى "هنرى فوسيلون" "Henri Focillon" (١٨٨١– ١٩٤٣م) ، إذ رأى " سترزيجوفسكى" أن "عبقرية الفنون والعمارة ولدت من الشمال" ، مدللا على ذلك بأن "المعابد الإغريقية قد اشتقت نظمها وشكلها البنائى من المنازل الخشبية فى بلاد الشمال ، حيث كان شكل المنزل فى الشمال ملائما للحماية فى فصل الشتاء ، و هذه الفنون الشمالية التى تحايلت على عوامل التلف تحولت إلى بنية معمارية ضخمة على شواطئ البحر الأبيض المتوسط"، واختتم بقوله أن "تطور البشرية يعتمد دائما على هجرات الشعوب الشمالية" (See: L. Marchand 1994: 106)

على الجانب الآخر قال "فوسيلون" مهاجما مصادر "سترزيجوفسكى" التى تقف عند مسألة العرق، مؤسسا نقده على "الطريقة التى طور بها الفنان أسلوبه مهما كان عرقه أو جذوره ،

بدلا من التركيز على أصل الأسلوب الفنى" ، و من ذلك فقد دلل قائلا : "لقد كان للبرابرة نموذج خشبي للعمود، لا يمكن الخلاف عليه إطلاقا، وليس أصله هو ما يجب أن يثير الإعجاب ، بل بالأحرى النسب الرياضية التي يقاس بها وأجزائه"، ويضيف " إن العمارة القوطية لم تكن تطورا في العمارة الخشبية أو تعبيرا عن عبقرية الشمال، ولكنها كانت مجرد حل لمشاكل الحجر، التي أنشأتها البرجوازية الحضرية" ويضيف فى موضع آخر ""إذا كنا نصر دائما على أن نشبه نمطا أنثروبولوجيا صارما ، فإن الحضارة ستكون دون ماض و دون حاضر." (See: Fucillon 1948- trans: B. Hogan, Charles and Kubler, George)

إجمالا بينما كانت آراء " سترزيجوفسكى" تركز على فكرة "الأسبقية" و"المفاضلة بين الثقافات" كانت آراء "فوسيلون" تركز على مرونة الفن و قابليته للتفاعل والتطور دون اعتبارات جنسية أو هوية إثنية.

في عام ١٨٥٨م سعى عالم الآثار الكلاسيكي "فيليسيان دي سولسى" " Felicien de Saulcy" (١٨٠٧- ١٨٨٠م) لإثبات وجود فن يهودي متطور للغاية من خلال فحص دقيق للكتاب المقدس ، و في عام ١٨٧٨م دافع اللاهوتي الكاثوليكي "فرانز ديليتسش" " Franz Delitzsch" (١٨١٣- ١٨٩٠م) عن فن التصوير اليهودي ضد الاتهامات الموجهة ضده على أساس كتابات قديمة ، كما أصبح "هاينريش فروبيرجر" "Heinrich Frauberger" (١٨٤٥-١٩٢٠م) ، مدير متحف "ديسلدورف" للفنون التطبيقية ، مهتما بالفن اليهودي بعد أن استشاره مهندس معماري حول الزخارف اليهودية للتعريشة الحديدية حول إحدى المقابر داخل المتحف، إلا أن "فروبيرجر" اكتشف أنه لا يمتلك مصادر حول هذه الزخارف ، فى الوقت الذى يمتلىء فيه المتحف بآلاف الصور والمصادر الفنية حول الفنون الكاثوليكية و البروتستانتسة والإسلامية و- حتى- البوذية، مما دفعه لبدء البحوث التي أدت به إلى إنشاء "جمعية لدراسة الآثار الفنية اليهودية" في "فرانكفورت". (Kogman- Appel 2009: 80)

فى خضم هذا الزخم جاءت اكتشافات "دورا أوروبوس" فى أكتوبر عام ١٩٣٢م ، وقبل أشهر قليلة من وصول النازية إلى السلطة فى "ألمانيا" (٣٠ يناير عام ١٩٣٣م) ، تزامن شيوع الأخبار المتعلقة بهذه الاكتشافات مع وقت كانت فيه دراسة الفن اليهودى قد ملأت المتاحف التى تم افتتاحها حديثا من خلال عدد من المنظمات الثقافية اليهودية ، مما شجع عدد من المؤرخين للإقبال على دراسة الفنون اليهودية لأول مرة فى حياتهم مثل "هانز ليتزمان" "

"Hans Lietzmann (١٨٧٥– ١٩٤٢م) الذى عقد ندوة فى "برلين" حول ذلك الاكتشاف، وقد علقت "أولين" فى دراستها (سبق الإشارة لها) بقولها :[سعى "ليتزمان" لتأييد الزملاء الأكاديميين الذين رفضوا مناصبهم لأسباب أيديولوجية أو عرقية، وسطر أوراقا كانت ، في بعض الأحيان ، تحديا صارخا للأيديولوجية النازية، وسعى إلى معارضة تهديد النازية للكنائس البروتستانتية والجامعات ، و من الصعب أمام كل هذا أن نصدق أنه لم يكن هناك دوافع سياسية لعبت في قرار "ليتزمان" للتركيز على الفن اليهودى خلال العام التالي لتولي "هتلر" السلطة في الواقع، كانت لفتة عقد ندوة حول اكتشاف آثار يهودية فى أرض شرقية ضمن جدول الجمعية السرية[٨١] التى كان "ليتسمان" ينتمى لها ، والتى كان من بين أعضائها من خطط لمحاولة اغتيال "هتلر" الفاشلة فى ٢٠ "يوليو" عام ١٩٤٤م] (Olin 2000: 14)

توافقت الندوة حول "دورا أوروبوس" مع هذا النموذج من المعارضة الهادئة التي تبناها "ليتزمان" في اهتمام لوحات أما المجلد الثاني من كتابه "تاريخ الكنيسة المبكرة" ، الذي نشر في عام ١٩٣٦م ، فقد أشار إلى اللوحات، وأتاحت له ظروفه المادية وقتذاك السفر إلى الأراضي المقدسة، والاطلاع على الجداريات المكتشفة حديثا في "دمشق" ، و قد كتب فى تقريره المقدم إلى "أكاديمية العلوم" عن رحلته فى الشرق حول أهمية الفن اليهودى فى الحضارة البيزنطية. (See: Wharton 1994: 67)

بشكل مماثل.. تابع مؤرخ الفنون البيزنطية "كورت ويتزمان" "Kurt Weitzmann" (١٩٠٤– ١٩٩٣م) جهود "ليتزمان" حول الكنيسة، كان "ويتزمان" تلميذا لـ"جولدشميت" ، انتقل لجامعة "برينستون" فى "أمريكا" وهناك أقام صداقة مع الكاتب "كريلينج" ليتشاركا فى متابعة الجهود العلمية و التوثيقية لكنيسة "دورا أوروبوس" ، وبالرغم من ذلك فلم يصدر "ويتزمان" كتابا عن هذه الاكتشافات إلا فى عام ١٩٩٠م، حيث صدر كتابه فى ذلك العام بعنوان "فريسك كنيسة دورا و الفن المسيحى" كما سبق الإشارة لذلك.

كان لهذه الجهود المشتركة بين "ويتزمان" و"كريلينج" دور فى كشف العلاقة بين الفنون المسيحية واليهودية، لا سيما حين تناولا فى إحدى ندواتهما الدورية الحديث عن لوحات مثل "العثور على موسى" (شكل ٦) و"عبور البحر الأحمر" (شكل ٧) و"العجل الذهبى" (شكل ٨)

[٨١]- هى جمعية تكونت من ستة عشرة مثقفا و عالما ، و قد سميت باسم "جمعية الأربعاء" أو "Wednesday Society" ، بدأت نشاطها منذ عام ١٩٠٢م ، و كان مقرها فى شقة "سيجموند فرويد" "Sigmund Freud" (١٨٥٦– ١٩٣٩م) ، أما أول رئيس لها فكان "ألفريد أدلر" "Alfred Adler" (١٨٧٠– ١٩٣٧م) الطبيب العقلى النمساوى.

ضمن مجموعة الجداريات بالكنيسة ، فقد أشار "ويتزمان" إلى "وجود زخارف مشتركة بين الفنين اليهودى والمسيحى تدعم فكرة وجود مخطوطات يهودية تفرقت خلال العصر الهيلينستى كانت هذه المخطوطات تحتوى على عدد من الرسوم التوضيحية أصبحت هى مصادر المخطوطات مسيحية ، وكانت آثار "دورا أوروبوس" هى الإشارة الهامة على وجود مخطوطات يهودية كانت موجودة حتى العصر الهيلينستى تبعا لما قدره العلماء آنذاك.(Olin 2000: 11)

(شكل٦)فرسك حائطى من مجموعة الأعمال بكنيسة "دورا أوروبوس" يجسد العثور على "موسى" الطفل فى البحر

(شكل ٧) فرسك حائطى من مجموعة الأعمال بكنيسة "دورا أوروبوس" يجسد خروج النبى موسى ببنى إسرائيل وواقعة عبوره البحر الأحمر بهم

(شكل ٨) فرسك حائطى من مجموعة الأعمال بكنيسة "دورا أوروبوس" يجسد واقعة السجود للعجل الذهبى

تجاوزت أهمية الجداريات بـ"دورا أوروبوس" كونها إثباتا لجذور الفنان اليهودى و دوره إلى ميادين أخرى للصراع الفكرى و السياسى و العقائدى ترتب عليها الهجوم على المسيحية والإسلام (فى بعض الدرسات) باعتبارهما مسئولين عن طمس الحقيقة ، و إغفال دور الفن اليهودى فى سياق تاريخ الفنون ، من ذلك ما قامت به الباحثة "راشيل ويسشنيتزر" من نشر دراسة فى عام ١٩٤٨م ركزت على الدور الكبير لليهود فى الفن ، و كيف كان دور المسيحية سلبيا تجاه هذه المؤثرات الهامة ، كما استخدم "كروثيمير" نبرة اللوم على "الإرهاب" الذى مورس ضد الأيقونات اليهودية ، و عزاه إلى المسيحية المبكرة ، و من بعدها الإسلام ، وبالمثل ، قال "روث" بأن سقوط الفن اليهودى جاء نتيجة الحماس الدينى للمثقفين البيزنطيين، أو خلال عصر الإسلامى ، حتى أن الأمر

وصل بـ"فروبيرجر" إلى تنظيم محاضرات فى سبيل دفع "الفاتيكان" لتقديم اعتذار رسمى عن الدور الذى لعبته الكاثوليكية فى المحرقة. (See: Wharton 1994: 109)

بطبيعة الحال لا يمكن إغفال البعد السياسى الذى ارتبط بهذه "الدعاية" المناهضة للمسيحية و الإسلام باعتبارهما مثّلا وسائل قمع لليهود و إنتاجهم خلال العصور الوسطى ، فى الوقت الذى كانت الحركة الصهيونية تثبت أقدامها فى "فلسطين" ، معلنة عن إنشاء وطن لشعب عانى الاضطهاد و القمع لقرون ، و لم تكن النبرة التى تصاعدت تدافع عن مستقبل اليهود تأسسا على تاريخهم القلق و المضطرب موضوعية بقدر ما كانت صاخبة ، لم تميز بين ما تعرض له اليهود فى أوروبا و ما لاقوه من احترام و رعاية فى ظل الوجود الإسلامى[٨٢] ، إلا أن بقاء الكيان الصهيونى فى الأراضى العربية كان مرتهنا بهذه الموجة العنيفة و المتطرفة تجاه التاريخ بأكمله.

كان تأثير آثار "دورا أوروبوس" عميقا للدرجة التى تغيرت معها آراء و أفكار بعض المؤرخين ، و تبدلت إلى النقيض ، على سبيل المثال اعترف " سترزيجوفسكى"– و كان واحدا من أكثر المنكرين لليهود و إنجازاتهم– بأنه "كان متورطا فى النضال من أجل القومية" ، وأصبح يتخيل تاريخ الفن "سلسلة من عمليات الاختطاف والاغتصاب والخلل الخاطئ المشكوك فيه" ، و مع مرور الوقت أسقط المؤرخون من حساباتهم

[٨٢]- بينما كان اليهود يعانون كل أشكال المطاردة و الاضطهاد فى أوروبا على يد دعوات مسيحية متطرفة اعتبرت كل "اليهود" "قتلة للمسيح" يجب أن تتطهر الأرض منهم ، برزت أسماء لعلماء و أدباء يدينون باليهودية فى مجالات عدة داخل حدود الدول و الأقاليم الإسلامية ، و تقلد بعضهم مناصب عليا ، على نحو ما شهده بلاط "صلاح الدين الأيوبى" (١١٣٨– ١١٩٣م) من اتخاذ "موسى بن ميمون" (١١٣٥– ١٢٠٤م) طبيبا خاصا ، و كذلك ظهور المؤلفات الأدبية باللغة العبرية لـ"ابن عزرا" (١٠٩٢– ١١٦٧م) لتحقق شهرة واسعة فى كل البلاد التى زارها كـ"مصر" و "فلسطين" و شمال أفريقيا.

التاريخ القديم لكتابات "سترزيجوفسكى" المعادية لليهود. (L. Marchand 1994: 134)

ختاما.. لقد كانت الجداريات فى "دورا أوروبوس" شاهدا حقيقيا على تحول فى تاريخ الفنون و مفاهيمه فيما يتعلق بجذور الفنون الشرقية، علاوة على دورها فى حراك ثقافى و فنى له عمق متصل بطبيعة العلاقات بين الأديان عبر العصور المختلفة ، كما كانت هذه الاكتشاف ذريعة للعديد من الأفكار و التوجهات و الممارسات فى القرن العشرين ، و على الرغم من أنها فتحت فصلا جديدا من فصول التمايز العرقى والعقائدى المتطرف اعتلى فيه اليهود موضع السيطرة و القيادة هذه المرة ، إلا أن ذلك لا ينفى قيمتها الفنية من حيث كونها نموذجا فريدا لامتزاج الثقافات ، فضلاً عن تسليطها الضوء على المراحل الأولى من تطور فن التصوير المسيحى ، و هو ما يجعل دراستها من الناحية التشكيلية أمرا جديرا بالاعتبار ، دون النظر لأية اعتبارات أخرى تقوم على التمايز أو تناحر الأيديولوجيات.

نتائج البحث :

من خلال ما تم استعراضه من آراء و تحليلات ضمن السياق التاريخى الذى ارتبط باكتشافات مدينة "دورا أوروبوس" يمكن استخلاص النتائج التالية :

أولا : تعد بلاد الشام حالة متفردة لامتزاج الثقافات المتباينة ، و تعد "مدينة "دورا أوروبوس" نموذجا جيدا لتجاور الثقافات و انصهارها فى منتج ثقافى واحد.

ثانيا : كان للاكتشافات الأثرية فى أوائل القرن العشرين فى بلاد الشام دور هام فى إعادة تشكيل البنية الفكرية فى أوروبا ، و حسم كثير من الإشكاليات الدائرة على مدى قرون حول طبيعة العلاقة بين الأديان.

ثالثا : هناك حضور للفن اليهودى لا يمكن إنكاره ، كان له دور فى وضع المبادىء الأولى للفنون البيزنطية كما يتضح ذلك من الجداريات فى "دورا أوروبوس".

رابعا : كان لإثبات دور الفنون اليهودية تأثير فى إثارة القضايا المتعلقة بوضع اليهود فى العالم عبر التاريخ ، و ما ارتبط بذلك من أحداث الاضطهاد و القمع لقرون طويلة فى أوروبا.

خامسا : استغلت الحركات الاستعمارية الصهيونة الاكتشافات الأثرية الحديثة ، خاصة ما وجد فى "دورا أوروبوس" ، بشكل دعائى ضد بقية الأعراق و الأديان ، فى سعى لإثبات أحقيتهم فى الأرض المحتلة و الوجود على حساب الكيانات الأخرى.

التوصيات :

فى نهاية الدراسة يوصى الباحث بما يلى :

أولا : تقصى الحقائق حول الفنون اليهودية ، و جذورها التاريخية فى سبيل إيجاد سياق تاريخى منهجى و موضوعى لتطور المنجز الحضارى فى مجال الفنون ، و ذلك بالمزيد من الدراسات و البحوث الميدانية فى الأراضى العربية خاصة منطقة بلاد الشام.

ثانيا : إجراء المزيد من الدرسات و المقالات البحثية المتعلقة بالعلاقة بين الفنون اليهودية و الفنون المسيحية خاصة خلال مرحلة العصور الوسطى ، بغية تأصيل الشخثية الفنية لكل عصر و كل عقيدة.

ثالثا : التحقق من الدور الذى لعبته المؤسسات الخاصة و الحكومية فى ترسيخ فكرة القمع العالمى الذى تعرض له اليهود عبر التاريخ ، و هى النقطة التى يتمحور حولها الصراع فى المنطقة العربية حاليا.

رابعا : الاستزادة من الأبحاث و العلوم فى مجال الدراسات الجيوسياسية فى سبيل دحض الادعاءات التى يروج لها الكيان الصهيونى حول التاريخ العربى ، و موقف الحكم الإسلامى من الوجود اليهودى فى فترة العصور الوسطى و ما بعدها.

مصادر البحث :

- Chester Jordan, William- The French Monarchy and the Jews: From Philip Augustus to the Last Capetians- Philadelphia- 1989.

- Focillon, Henri- The Life of Forms in Art"- 2d. ed., trans. B. Hogan, Charles and Kubler, George - New York- 1948.

- Gombrich, E.H. - The Story of Art- 12th ed- New York- 1972.

- H. Kraeling, Carl- The Synagogue: The Excavations at Dura-Europos, Final Report- vol. 8- part 1- New Haven- 1956.

- Holly, Michael Ann- Panofsky and the Foundations of Art History- Ithaca- Cornell University Press- 1985.

- Howarth, Herbert- Jewish Art and the Fear of the Image- in: Commentary 9 (February 1950).

- Jane Wharton, Annabelle- Good and Bad Images from the Synagogue of Dura Europos: Contexts, Subtexts, Intertexts in: Art History 17- March- 1994.

- Janson, H. W.- History of Art- 4th ed- rev. Anthony F. Janson- Englewood Cliffs- N.J.- New York- 1991.

- Kleinbauer, W. Eugene. Research Guide to the History of Western Art. Sources of Information in the Humanities, no. 2. Chicago: American Library Association, 1982, pp. 69–70.

- Kogman-Appel, Katrin- Christianity, Idolatry, and the Question of Jewish Figural Painting in the Middle Ages- Speculum- The University of Chicago Press Vol. 84- No. 1- Jan 2009- pp. 73-107

- L. Marchand, Suzanne- The Rhetoric of Artifacts and the Decline of Classical Humanism: The Case of Josef Strzygowski- in: History and Theory: Studies in the Philosophy of History- Theme Issue 30: Proof and Persuasion in History- 1994.

- Olin, Margaret- Early Christian Synagogues" and "Jewish Art Historians". The Discovery of the Synagogue of Dura-Europos- Verlag des Kunstgeschichtlichen Seminars der Philipps-Universität Marburg- 2000.

- Pop, Maurice- The Story of Decipherment- Thames and Hudson Ltd- London- 1999.

- Riegl, Alois - Theory of Art- University Park- n. 11- 1992.

- Soussloff, M - Jewish Identity in Modern Art History- Berkeley- 1999.

- Weitzmann, Kurt and L. Kessler, Herbert- The Frescoes of the Dura Synagogue and Christian Art- Washington- D.C. 1990.